التواصل العربى الإفريقى علي جانبى الصحراء

د حسـن مكـي *

شوشت التقسيمات الجغرافية الحديثة ، علي كثير من المفاهيم الراكزة، مثل مفهوم العالم العربي والعالم الإسلامي ، حيث أخذت تبرز مفاهيم الشرق الأوسط مثلا ، وهو مفهوم يسعي لتجريد المنطقة من خصائصها الحضارية ، بل إن الطلاب يدرسون جغرافية آسيا وإفريقيا باعتبارهما كيانين متمـايزين ، بينـما العالم العـربي الذي يمتد مـن أجزاء اسيا الشرقية (الجزيرة العربية وخليجها والشام والرافدين) شكل مع وادي النيل وشرق إفريقيا ومغربها وحدة حضارية متصلة ، وقد بلغت ذروة هذا التفاعل الحضاري في صدر الإسلام وبرز ذلك التفاعل الحضاري في الآتي :

أولا : إن كلمة إفريقيا تدل علي شاطيء شمال إفريقيا وأصبحت تنطبق منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد علي كل إفريقيا وكما جاء في معجم البلدان ، انها سميت إفريقية بافريقس أبرهة ابن الراتش – القائد اليمني المعروف الذي فتح شرق إفريقيا ، في رواية أخري هو افريقس صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وأنّه لمّا غزا المغرب انتهي إلي موضع رحيب كثير المياه فبني مدينة أسماها علي نفسه إفريقية (١) .

ثانيا : قيام الصحابة المنحدرين من أصل إفريقي بأعباء الدعوة الإسلامية في الحجاز والتفافهم بوصفهم كطليعة مؤمنة حول الرسول الكريم ، بل إن ما أصابهم في سبيل الدعوة الإسلامية كان أكثر مما أصاب غيرهم ، لأنه لم تك لهم قبيلة ترعاهم أو جوار يدخلون فيه ، ولذلك صب عليهم العذاب صبا ، ولذلك كان منهم أول شهيد في الإسلام وهي سمية بنت الخياط ، وكان بلال الحبشي من أوائل الذين أظهروا إسلامهم وحسب رواية مجاهد فإن خمسة من السبعة وهم أول من أظهر إسلامهم بمكة من الموالي (الرسول الكريم وابوبكر) ثم بلال وخباب وصهيب وعمار وسمية .

---

* عميد مركز البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة إفريقيا العالمية

ومن أبرز الصحابة الأفارقة الذين تفرغوا لهمّ الدعوة والتفوا حول الرسول الكريم – أم أيمن الحبشية وهي مثال للمرأة المسلمة ، لأنها هاجرت وأوت ونصرت وكان الرسول الكريم يقول عنها أنت أمي بعد أمي – وسالم مولي ابن حذيفة الذي أوصي الرسول الكريم بأخذ القرآن منه (٢) والحب ابن الحب أسامة بن زيد ، وعمار بن ياسر وعامر بن فهيرة الذي شهد بدرا ومات شهيدا في بئر مؤته وأسلم الحبشي والذي استشهد في فتح خيبر وأبوبكرة والذي اشتهر بكثرة العبادة – ومهجع الحبشي وإذا كانت سمية أول شهيد في الإسلام بين الذكور والإناث فإن مهجع أول شهيد بين الذكور واستشهد في موقعة بدر والمقداد بن عمرو الأسود وخبر هؤلاء جزء من خبر عشرات الصحابة الأفارقة الذين شكلوا ذلك الجيل القرآني الفريد – ولا ننسي أن مارية القبطية وهي من أمهات المؤمنين أم إبراهيم تنحدر من إفريقيا .

ثالثا : اختيار الطليعة المؤمنة ، لإفريقيا (الحبشة) دارا للهجرة وهاجر ثلثا صحابة رسول الله إلي الحبشة وهناك أسسوا أول دولة إسلامية – كان رئيسها النجاشي أصحمة الذي أسلم ونسبة لإسلامه خرجت عليه الكنيسة ودارت حرب مشهودة علي النيل ، انتصر فيها النجاشي ، وبذلك تأمن ظهر الدعوة الإسلامية .

ونالت إفريقية شرف إقامة أول تحالف عربي / إفريقي علي هدي الإسلام وأن أول دم أريق في الإسلام إنما كان في أرض إفريقيا وللأسف فان شهداء تلك المعركة لانعرفهم ولانعرف حتي عددهم – ولكن صلي الرسول الكريم عليهم بصلاته علي النجاشي يوم وفاته ، وبذلك فان المشروع الإسلامي قام شراكة بين إفريقيا وجزيرة العرب .

رابعا : إن كانت الدعوة الإسلامية قد انتشرت بين الروم والفرس فتحا إلا انها في إفريقيا دخلت سلما وذلك عن طريق الهجرة في شرق إفريقيا وعن طريق الفتح الميسر في مصر عام ٤٠هـ / ٦٦٤م ، مثل الفتح الإسلامي حركة تحرير لمصر لأن مصر كان يحكمها البطريرك البيزنطي المقوقس من قبل هرقل ملك الروم منذ عام ٦٣١م وقد انتهج سياسات عدوانية وقاسية ضد المصريين حتي يجبرهم علي التسليم بالمذهب الكنسي الملكاني للامبراطورية الرومانية مما اضطر بنيامين بطريرك الأقباط المصريين للاختفاء ودعا الأساقفة إلي الهجرة إلي الصحراء والجبال ، وقد سلطت نيران المشاعل علي جسم شقيق بنيامين حتي سال دهنه علي الارض لذا فالفتح الإسلامي مثل حركة تحرير انتهت إلي رفع الاضطهاد عن المصريين، وتحولت مصر إلي ولاية إسلامية وكان أهم شروط صلح فتح مصر حرية الأقباط في ديانتهم واحتفاظهم بكنائسهم واديرتهم ورحيل البيزنطيين عن مصر بحر وبرا ، ولم يبدأ المصريون في اعتناق الإسلام في شكل جموع الا بعد قرنين من الفتح الإسلامي ، مما يدل علي سماحة الإسلام واعترافه بالآخر وأن الإسلام جاء لإفريقيا محررا ، ولذا فقد آثر المسلمون فتح إفريقيا عن طريق الاسكندرية لإنهاء الاضطهاد والقمع وكان في وسعهم فتح

إفريقيا عن طريق سواكن والحبشة ولكن لأن الحرية الدينية كانت متوافرة في إفريقيا الشرقية بدليل هجرة الصحابة إليها ، فقد بدأ الفتح من مصر لرفع الاضطهاد والقمع وبسط رسالة الإسلام التحررية ومن الوارد أن يكون هذا التسامح مع الكنيسة القبطية ردا لدين تحالف هذه الكنيسة مع الرسول صلي الله عليه وسلم في فترة النجاشي إذ كانت الكنيسة الحبشية منذ قيامها حتي مابعد الحرب العالمية الثانية تابعة للكنيسة القبطية في مصر وقد نمت شخصية بطريرك الأقباط في مصر بعد الفتح الإسلامي حيث أصبح شعب الكنيسة ينتخب إدارته دون تدخل من الوالي الإسلامي بل إن البطريرك المنتخب يصبح نائب الخليفة في حكم مصر وهكذا أدي الفتح الإسلامي إلي تقوية شخصية الكنيسة الإفريقية القبطية إبعاد ضغوط وهيمنة الكنيسة البيزنطية التي لاجنور لها في إفريقيا (٣) تم عن طريق العهد في حملة وادي النيل ، حيث أصبحت أرض النوبة أرض عهد بمقتضي عهد البقط وبذلك تكاملت حركة المد الإسلامي من الشرق والشمال – ثم أصبحت سائر أرض إفريقيا أرض تعايش أو معايشة عروبية / إسلامية / إفريقية ، بمعني أن المسلمين العرب توغلوا في إفريقيا دعاة وتجارا ومستكشفين ورعاة وطالبي ملجأ – ومثلت إفريقيا لهم دار ملجأ وتعايش فانتشر الإسلام في إفريقيا ما وراء الصحراء بالتفاعل الحر والاتصال الفكري والثقافي والمعايشة وعن طريق التجارة والطرق الصوفية دون قهر أو حرب ، فإن كان الفكر الإسلامي التقليدي قد عرف دار الإسلام ودار الحرب إلا أنّه في إفريقيا عرف دار العهد ودار المعايشة .

خامسا : توطن الإسلام في إفريقيا منذ أيامه الأولي بالاندماج في الثقافة العربية الإسلامية وبالمصاهرة والزواج وبالإقامة كما برز منذ صدر الإسلا م روادٌ أفارقة في حقل الثقافة الإسلامية ومن أبرز هؤلاء يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر وشيخها ومفتيها وأبرز رجالها في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ولد ٥٢هـ / ٦٧٢م . ووالده الدنقلاوي أبوحبيب أبويزيد واسمه سويد وكان من النوبة ومن مدرسة مصر الأولي – جامع عمرو بالفسطاط وأساتذتها هم كبار الصحابة ، وعميدها الأول عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعلومها دينية تتصل بالقرآن وتفسيره والحديث وروايته ، وعن هذه المدرسة وأساتذتها ، وأجلاء الصحابة ، أخذ يزيد بن أبي حبيب العلم ونبغ فيه حتي أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الإفتاء في مصر إلي ثلاثة رجال : اثنين أفارقة مستعربين ورجل من العرب ، وعلل عمر بن عبدالعزيز ذلك قائلا : " ماننبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا وانتم لاتسمون ، وحسب قول السيوطي فإنه أي يزيد (أول من أظهر العلم بمصر ، والمسائل في الحلال والحرام " وقد توفي يزيد بمصر سنة ١٢٨ هـ / ٧١٥ م (٤) ، وتكاملت المدرسة الإفريقية بعده ببروز الليث ابن سعد وجيل كامل من الفقهاء والمفسرين والمؤرخين نوبة وبربر ومصريين وأفارقة مستعربين أخذ عنهم العالم الإسلامي فنونه ويدل علي مكانة يزيد العلمية الأحاديث التي

رواها في كتب السنة المشهورة (البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة والتي بلغت مائة واثنين وستين حديثا (٥) وعلي شاكلة يزيد برز في خارج نطاق إفريقيا من العلماء الأفارقة عطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير وبرز من الأفارقة في حقل الفكر والثقافة والأدب الجاحظ المتوفي ٨٦٨م والموسيقار أبوعباد معبد بن دهب المتوفي ٧٤٣م وابوعتاب رياح المتوفي ٧٣٣م والذي أصبح مفتيا لمكة وبرع في التفسير والفقه ، وكذلك فإن المغني المشهور ابن محجن من أصل حبشي وتوفي عام ٧٢٦م أما في عالم السياسة ، فقد جاء زمان تأفرقت فيه الدول العربية الإسلامية في إفريقيا علي عهد والده المستنصر وزوجه شجرة الدر ومن أبرز الحكام الأفارقة الذين حكموا مصر كافور الإخشيدي في عام ١٦٦م ، والذي تولي إمارة الديار المصرية ثلاثا وعشرين سنة ، وقد أثار ذلك إعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من (أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير) وكان كافور خبيرا بالسياسة وكان يهادي المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله إليه .

وكان يذعن بالطاعة لبني العباس ، وكان بلاطه مجمعا للعلماء والأدباء والشعراء حتي اجتذب المتنبيي والذي هجاه بعدها ، وقد رفض كافور طلب المتنبي بالولاية قائلا " ياقوم رجل ادعي النبوة مع خير البشر كيف يوليه كافور فيأمنه " (٦) .

أما عن شعوب إفريقيا ، فالكثير منها يعود بأنسابه إلي أصول عربية ، إذ معظم قبائل الصومال تعود بأنسابها إلي أصول عربية كما أن جنور العفر تعود إلي هجرات العرب العاربة التي يرجح أنه مضي عليها أكثر من خمسة آلاف عام ، وتمتد بلاد العفر من ميناء مصوع في إرتيريا إلي رأس جيبوتي ثم إلي وادي نهر هوامش تي ديسي في اثيوبيا وكذلك فإن الأمهرة والتجراي ينحدرون من أصول عربية – أما قبائل السودان فإن معظمها يتمسك بأصوله العربية وكذا كثير من قبائل تشاد والطوارق .

بل إن لغات إفريقيا الأساسية بعد العربية ، استمدت معظم مصطلحاتها من اللغة العربية وكتبت بالحرف العربى مثل السواحيلية والهوسوية والفلانية والصومالية ولكن ياحسرتاه حينما ضعف التواصل العربي / الإفريقي وحينما هجم الاستعمار علي إفريقيا وبدل شخصيتها وغير من حالها هجم علي لغاتها ، فكتبها بالحرف اللاتيني وأجبر الصفوة الجديدة خريجة المدارس التعليمية الكنسية علي الأخذ باللغة الجديدة ، المقطوعة النسب باللغة القديمة ، فكتبت السواحيلية والهوسوية والصومالية والفلانية بالحرف اللاتيني وأصبحت لغة السواحيلي مثلا المكتوبة بالحرف اللاتيني هي لغة الحياة والاتصال والتفاعل العلمي والفكري والثقافي في تنزانيا ومنطقة البحيرات وماتت السواحيلية الإسلامية ونمت السواحيلية الغربية المتنصرة وأخذت تتغذي من شجرة اللغات اللاتينية في مصطلحاتها ومفرداتها وقواعدها وطرق كتابتها مايقال عن السواحيلية الحديثة المتنصرة يصدق علي بقية اللغات . ويمكن تلخيص حركة المد العربي / الإسلامي في إفريقيا في الآتي :

ظهور المراكز الإسلامية والمراكز التجارية وإقامة كيانات سياسيه عربية إسلامية في الساحل الشرقي وفي غرب إفريقيا – مثل زيلع وسواكن وهرر ومقديشو وباضع ومصوع حتي موزمبيق أما غربا فقد ظهرت تمبكتو وجنيّ وكانو .

وتطورت المراكز الإسلامية إلي سلطنات ودويلات وقد درجت المصادر الإسلامية علي تسمية الكيانات الشرقية بدول الطراز الإسلامي ، لأنها علي جانب البحر الأحمر والمحيط الهندي كالطراز له وتشمل هذه ممالك الصومال السبعة (وأوقات داوارو ، ارابيني . سرحا ، بالي جاز وجزيرة دهلك وعدل .

أما غربا فقد برز حزام الممالك السودانية ، مثل سلطنة سنار الإسلامية والمسبعات ودارفور ، ووداي وكانم وبرنو ومملكتي غانا ومالي ثم خلافة صكتو .

والقاسم المشترك بين كل هذه الممالك والدويلات والسلطنات ، أنها سلطنات إفريقية محلية ، تطورت وبرزت بمجهودات محلية ونبتت قياداتها من البيئة المحلية وطورت ثقافتها وحركتها الاجتماعية علي هدي الثقافة الإسلامية ، ونهضت الحركة العلمية فيها علي الحرف العربي ولم تبرز هذه السلطنات نتيجة لفتوحات إسلامية وإنما جاءت نتيجة لتفاعل حركة الثقافة الإسلامية مع الواقع المحلي وعبر أزمات طويلة ، وتقبل الواقع المحلي مفردات الثقافة الإسلامية عبر عملية أخذ وعطاء حتي برزت سلطنات وممالك إسلامية تمثلت الثقافة الإسلامية وعبرت عنها في صورتها الموضوعية في أطرها الإفريقية .

ومن أبرز رواد حركة الإصلاح والتجديد الإسلامي في إفريقيا أحمد ابراهيم الجران ، وعمارة دنقس ، وعثمان دان فودي وتتبع أهمية هؤلاء من الآتي :

أنهم أفارقة لحما ودما ولكنهم مسلمون فكرا وثقافة .

نجح كل واحد منهم فى إقامة دولة إسلامية وإقامة حركة جهاد محلي أدت إلي قيام مجتمعات إسلامية مايزال مددها يلهم حركات الإصلاح والتجديد ، وأنجبت بلاد الحبشة القائد المجاهد أحمد ابراهيم الجران – أي الأعسر – ١٥٠١ – ١٥٤٢م وقد بدأ هذا الإمام حركته كحركة دعوة ثم تحولت إلي حركة إصلاح وجهاد لإقامة كيان إسلامي لمسلمي الحبشة ، وقد خاض في ظرف عشر سنوات ستين معركة محلية ودولية ، كان أبرزها ضد دولة البرتغال ، وقد انتصر الإمام أحمد في معاركه جميعا ، واستطاع الإمام أحمد آن يوحد الممالك والشعوب الإسلامية في إطار عاصمته هرر ، ومن هناك انطلق كالسهم فاتحا لبلاد أكسوم القديمة حاضرة بلاد التجراي واخترق الهضبة الحبشية إلي الغرب حتي تمكن من فتح مناطق يهود الفلاشا عند منبع النيل الأزرق ومشارف بلاد التاكا داخل حدود السودان الحالية وقد روعت أوربا الصليبية بفتوحات الإمام أحمد بن إبراهيم وخشيت من حدوث إنقلاب إسلامي يؤدي إلي تقويض حركة الحضارة المسيحية نهائيا في الحبشة ومن ثم إفريقيا ، خصوصا وأن ذلك توافق مع ماحدث في السودان ، من زوال دول ممالك النوبة

المسيحية علي أثر تكامل التحالف الفونجي / العبدلابي والذي أدي إلي إقامة مملكة سنار الإسلامية ، وقد أدي ذلك لمسارعة البرتغال التي ورثت إمكانيات ومجد مملكة الأندلس للتدخل لإسعاف ملك الحبشة ، غير أن قائد قوة التدخل البرتغالية كريستوفر دي جاما شقيق المكتشف البرتغالي فاسكو دي جاما لقي مصرعه علي يد الإمام أحمد في عام ١٥٤٢ ولكن ونتيجة لاستخدام السلاح الناري تمكن البرتغاليون من قتل الإمام أحمد وتثبيت أركان المسيحية في الحبشة (٧).

كان لغزوات وجهاد الإمام أحمد بن إبراهيم آثار كبيرة علي حركة إفريقيا والثقافة الإسلامية ، إذ أدي نجاحه الباهر والذي تمثل في دخول معظم سكان إثيوبيا في الإسلام إلي مجيء الجيوش الصليبية الغربية لإفريقيا عامة ومنطقة شرق إفريقيا بخاصة لحماية المسيحية وتقويض الإسلام ونهب موارد إفريقيا واستغلال إنسانها في تجارة الرقيق وفتح أسواقها أمام المنتوجات الأوربية والتحكم في ممراتها المائية مما قاد مستقبلا. لحركة البعثات التبشيرية المسيحية والاستعمار – ومنذ ذلك اليوم أصبحت الثقافة الغربية بإمكانياتها التحديثية التحدي الماثل الشاخص أمام الحضارة العربية .

أما عمارة دنقس فهو شخصية سودانية ، يرمز اسم عمارة إلي المحتوي العربي في هذه الشخصية واسم دنقس إلي البعد الإفريقي فهو يعبر عن السودان كدولة إفريقية صميمة اختارت طريق الهوية العربية والانتماء الإسلامي وقد استطاع هذا القائد والذي كانْ زعيما لحركة سودانية صميمة التحالف مع القبائل العربية والقضاء علي دويلات النوبة المسيحية وإقامة أول دولة مركزية وكيان سياسي لحركة الحضارة الإسلامية في سودان وادي النيل الحالي وذلك في مستهل القرن السادس عشر الميلادي وقد عوض بروز سودان وادي النيل الإسلامي المسلمين والحضارة الإسلامية عن الخسارة الفادحة التي لحقت بهم بضياع الأندلس ، فكان مجيء فردوس إسلام وادي النيل في قلب إفريقيا معاوضة عن خسارة الفردوس الأوربي دولة الأندلس التي قامت في مكانها مملكتا البرتغال وأسبانيا ، وقد امتد العمر بدولة سنار الإسلامية المحمية أكثر من ثلاثة قرون ، أصبحت فيه أرض الملجأ لكثير من علماء الإسلام والشعوب الإسلامية المضطهدة كما نشأت فيها دور للعبادة ومساجد ومدارس نشرت حركة الحضارة الإسلامية مابين بلاد الحبشة حتي نهر النيجر وأصبحت أرض سنار أرض مهجر وطريقا للحج من العمق الإفريقي حتي ساحل البحر الأحمر كما برز فيها علماء وبيوت دين وطرق صوفية وحركات جهاد بلغت قمتها في بروز السيد عثمان دان فودي في أقصي السودان الغربي ومهدي السودان ثم مهدي الصومال .

أما الشيخ عثمان دان فودي (٨) ، فقد قاد حركة بعث إسلامي توافرت لها أسباب النضج الفكري في تصورها السياسي المنطلق من الإسلام وقد حالفها التوفيق فيما قام به ، من جهود في حقل الدعوة والجهاد والدولة وأثمر ذلك قيام الخلافة الصكتية في ١٨٨٣ التي

استمرت زهاء القرن إلي أن قضي عليها الانجليز في عام ١٩٠٣ وإن لم يستطيعوا أن يخضعوا مشروعها تماماً ، إذ ماتزال رأيات الإسلام مرفوعة في غرب إفريقيا ومايزال النظام الاجتماعي والثقافي مشدوداً إلي أفكار ومجاهدات دان فودي .

أقام الشيخ عثمان دولة إسلامية قائمة علي الإمارة والبيعة والجهاد وبرزت عبقرية الشيخ في نجاحه علي القضاء علي شبه الكيانات القبلية في بلاد الهوسا وصهر هذه الكيانات في خلافة إسلامية كبري غطت مساحة شاسعة تقدر بنحو ٥٠ الف ميل مربع ، وانتقل بالمجتمع من طقوس اللادينية وفوضي الوثنية إلي آفـــاق الدعوة الإسلامية كما نشر اللغة العربية وآدابها في طول وعرض بلاد الهوسا واعتمدها لغة رسمية للخلافة وكان يجيدها كتابةً وكلاماً وأصبحت العربية بفضل الشيخ وجهوده لغة العبادة والجهاد والتجارة والمعاملات والثقافة والفكر ، كما قامت دعوته وحركته علي أساس فكري متين ، مهد له بمائة مؤلف أو تزيد مما يسّر اتساع وتطور مدد حركة الثقافة الإسلامية وأثرت مؤلفاته علي الحركة العلمية في مجمل العالم الإسلامي .

كما نجح دان فودي في إبراز النموذج الإسلامي في القيادة ، فقد كان معلماً وصاحب درس للذكور وللإناث ، كما كان شاعرا استخدم الشعر في حمل معاني الدعوة الإسلامية كما كان عالما وفقيها مفتيا ويعتبر محرراً للمرأة ، حيث خصص لها مكانا في الدرس ، ورفع من شأنها وكتب كتابا في تحرير المرأة اسمه (تنبيه الإخوان علي جواز اتخاذ المجالس لتعليم النسوان) .

ويمكن القول : إن دان فودي أهم دعاة الفكر والإصلاح والتجديد الذين أنجبتهم أرض إفريقيا وأنه أرسي مُرتكزات حركة التواصل العربي / الإفريقي بجهوده ومؤلفاته ، ولاندري ماذا سيكون مردود حركة دان فودي لو أنه عاش وصادم الاستعمار ، لأن دان فودي لم يجابه الاستعمار بسلاحه الناري وتنظيماته ، وإنّما كان ذلك نصيب وقدر أحفاده ، ومهما يكن ، فربما لو امتد العمر بدان فودي وجابه الاستعمار لمات شهيداً وربما رفع ذلك من قدره حين يموت شهيداً وما كان ذلك سيقلل من آثار دولته ومكانتها العلمية والحضارية .

ومهما يكن ، فإن إفريقيا هي قارة الإسلام وقارة التواصل الحضاري العربي / الإفريقي وقد قامت آليات التواصل علىٰ حركات الجهاد والتجديد والقوافل وطرق التجارة وطريق الحج الذي امتد من عمق إفريقيا إلي بلاد السودان ثم الحجاز ، كما أن مراكز الثقافة الإسلامية في العالم العربي ، أسهمت في بعث حركة الثقافة الإسلامية في أعماق القارة – وقد كان للأزهر ومايزال دور مشهود . وفي القرن الثامن عشر ازدهر الفكر الصوفي وأوراد الطريقة الخلوتية بين علماء الأزهر ، ومن أمثلة ذلك حلقة العالم الأزهري شمس الدين الحفناوي ، حيث أنجبت هذه الحلقة عبدالرحمن العيدروس (٩) وكان من زملائه في ذات الحلقة الشيخ أحمد الدردير – استاذ العالم السوداني أحمد ودعيسي والشيخ محمود الكردي استاذ

التصوف المشهور ومؤسس الطريقة التجانية السيد أحمد التجاني والشيخ جبريل بن عمر استاذ عثمان دان فودي .

وقد أسهم تلامذة هؤلاء الشيوخ الأزهريين في نشر الثقافة العربية الإسلامية في كل إفريقيا ، كأحمد ود عيسي الذي أسس مسيد كترانج وهو جامعة علمية بمقاييس ذلك الزمان ، درس فيها الطلاب من إفريقيا علوم الفقه وعلوم العربية والتفسير بالإضافة إلي حفظ القرآن ، أما الاستاذ السيد أحمد التجاني ، المنحدر من عين ماضي في الجزائر والمدفون بفاس في المغرب ، فإن طريقته الطريقة التجانية ، يمكن أن تعتبر من أكبر الطرق الصوفية في إفريقيا ومراكزها ومساجدها وزواياها وشيوخها ينتشرون أينما حللت في إفريقيا – في نيجيريا والنيجر وسيراليون وتشاد وانتهاءً بالسودان واثيوبيا وقد أبرزت جيلا من العلماء متشربا بآداب الطريق وله قدم في الثقافة العربية الإسلامية .

وهناك مدرسة أخري أثرت بعمق في إفريقيا هي المدرسة الصوفية المنسوبة إلي الشيخ الأستاذ مصطفي البكري والذي أخذ عنه الشيخ عبدالكريم السماني والذي كان يسكن في مدينة رسول الله بالحجاز ، وكان من تلامذة الأستاذ السماني كل من الشيخ أحمد الطيب البشير والذي نشر مباديء وأوراد الطريقة السمانية في السودان والشيخ آدم الكناني الذي نشر الطريقة في ربوع ارتيريا وكذلك تتلمذ علي يديه الاستاذ الشيخ أحمد التجاني لفترة وقد سبق الكلام عن التجانية .

أما المدرسة الثالثة فهي مدرسة الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي – من مواليد فاس – وهاجر منها فيما قبل وصول نابليون إلي القاهرة ، حيث استقر في الحجاز وهناك تعرف علي معظم مدارس الفكر الصوفي وحركات العلماء ثم برز بمدرسته وكان من أهم تلامذته السيد / محمد علي السنوسي الذي نشر الثقافة الإسلامية والحركة السنوسية في ليبيا والصحراء حتي تشاد وجنوب السودان وكذلك السيد / محمد عثمان الميرغني باذر بنور الطريقة الختمية في مصر والسودان وارتيريا والحبشة والسيد إبراهيم الرشيد باذر بنور منهج ابن ادريس في الدعوة والإرشاد في شمال السودان والذي أخذ مهدي الصومال محمد ابن عبدالله الحسن منهجه عبر تلميذه وابن اخته – أي ابن أخت السيد إبراهيم الرشيد محمد صالح ، حتي سمي مهدي الصومال طريقته وطريقة اتباعه بالطريقة الصالحية وأصبحت أوراد وأشعار هذه لطريق زاداً لهم في جهادهم وحربهم .

وكذلك فإن أوراد وأذكار الطريقة الشاذلية استقرت في عمق القارة الإفريقية وعلي الأخص سودان وادي النيل عبر رحلات شيخها أبي الحسن الشاذلي والذي كان يحج إلي بيت الله الحرام عبر ميناء السودان عيذاب ومات في صحراء عيذاب في منطقة حلايب الحالية (قرية حيمثراء ثلاثة عشر ميلا شمال عيذاب " ومزاره هناك .

ومن آخر المدارس انتشارا في إفريقيا – المدرسة الوهابية ، المنسوبة للشيخ محمد ابن

عبدالوهاب المتوفي ١٧٩١ ، وبرزت هذه المدرسة في نجد ، وعمدت إلي نشر عقيدة التوحيد مبرأة من البدع والإشراكيات ودخلت في صراع مع الفكر الصوفي في قضايا التوسل ورفع وتجصيص القبور والمزارات والشعوذة والسحر - بالإضافة إلي القضية الأصولية قضية مصادر المعرفة وموقع الإلهام والباطن والكشف فيها - ومع إن الحركة الوهابية التي تعرف باسم (أنصار السنة) حققت نجاحات في العقود الأخيرة وبرزت لها مساجد ومدارس وفازت بدعم مادي ومعنوي من المركز إلا أنها ماتزال بعيدة عن تسجيل حضور في عمق الثقافة الإفريقية وفي عمق الإسلام الإفريقي بطابعه الشعبي والذي يستمد بعض خصائصه من الفكر الصوفي ومايهم أن هذه المدرسة كذلك لها إسهاماتها في مجال التواصل الإسلامي / الإفريقي .

أما المدرسة الأخيرة فتعبيراتها مختلفة ، ومنها ماهو نو طابع رسمي مثل الجهود الرسمية لنشر الثقافة العربية الإسلامية كما تقوم به جمعية الدعوة الليبية أو منظمة الدعوة الإسلامية أو رابطة العالم الإسلامي أو مؤسسات الأزهر الشريف والبعثة التعليمية العربية أو الجامعة مثل كلية الدعوة الإسلامية بليبيا والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة إفريقيا العالمية بالسودان - ومنها ما مضمونه فكري / سياسي مثل امتدادات الحركة الإسلامية المعاصرة في إفريقيا علي نحو ماهو حادث في الصومال والسنغال ونيجيريا وجنوب إفريقيا من حركات إسلامية وأندية لتجمعات الشباب المسلم .

إن دراسة حركة انتشار الثقافة العربية الإسلامية وتقبل الأفارقة للإسلام طوعا وسلما ، تكشف أن الأمور لو سارت علي سجيتها ، لأصبحت كل إفريقيا مسلمة ، وأن الانتكاسات التي أصابت المشروع الإسلامي في إفريقيا مردها إلي التدخل الخارجي والذي تمثل في الآتي :

أولا : الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي حيث أدت إلي صب طاقات العالم الإسلامي في الدفاع عن ثغوره مما شغله عن واجب نشر الدعوة الإسلامية في عمقه الإفريقي وتركت الدعوة الإسلامية لأقدارها - وقد وصل التهجم الأوربي إلي حد خطف علماء المسلمين كما حدث للحسن بن محمد الوزان والذي برز في معرفته لإفريقيا جنوب الصحراء ، وقام القراصنة الإيطاليون بخطفه وهو عائد من رحلته إلي تونس ١٥٢٠م وقضي في الأسر والاسترقاق ثلاثين عاما مع الباماليو العاشر وخلفائه وألف أهم كتبه و الذي كتبه باللغة الايطالية سنة ١٥٢٦ " وصف إفريقيا " وكتب فيه مشاهداته الإفريقية معتمدا علي ذاكرته

ثانيا : القضاء علي دولة الأندلس الإسلامية ١٤٩٤م - وقد أسهم ذلك سلبا وإيجابا في حركة الدعوة الإسلامية ، حيث أنطفأ ذلك المد الإسلامي الأوربي والذي كان يغزي حركة المشروع الإسلامي علي الأخص في شمال إفريقيا - ولكن كذلك أدي تشريد وطرد علماء المسلمين من الأندلس إلي طلب الملجأ في إفريقيا ، حيث استقر عدد من هؤلاء العلماء مثل الحاج موسي

مؤسس أسرة حسن ود حسونة في السودان وغيرهم وأسهم هؤلاء في حركة الدعوة ونشر الإسلام أينما استقروا .

ثالثا : تجارة الرقيق والتي باشرها الأوربيون عبر غرب إفريقيا ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي ، حيث نقلوا وقتلوا أكثر من خمسين مليونا من الأفارقة ، مات نصفهم في حروب الاصطياد وبعضهم في الرحلات المضنية وهم في السلاسل ومعظم هؤلاء كانوا من المسلمين ، لأن الإسلام انتشر أصلا علي سواحل القارة شرقا وغربا وشمالا وأدي نقل الأفارقة بهذه الصورة إلي تدمير مؤسساته الفكرية والثقافية ، حيث هجر السواحل وهرب إلي الغابات وانتكست أوضاعه ، حينما انقطع عن التواصل الفكري والثقافي والسياسي مع إفريقيا شمال الصحراء مما عرضه للضياع والمرض والعري والتخلف والدخول في ثقافة العصر الحجري ومن المحزن أن بعض الجشعين من العرب والأفارقة ساهموا في هذه التجارة كوكلاء للشركات الأوربية ومع تفاهة وضآلة دورهم إلا أنهم سهلوا حركة المشروع الغربي في استرقاق واستعباد الأفارقة وتجفيف سواحل إفريقيا الغربية والشرقية من مدد وينابيع الثقافة الإسلامية .

رابعا : التكالب الكنسي وماداخله من مشروع تنصيري في إطار حركة الكشوفات الجغرافية والاستعمار وحتي عام ١٧٩٠م كانت الكنائس والإرساليات تقوم بقرابة الـ ٩٠٪ من المشروع التعليمي في إفريقيا وإذا علمنا أنه حتي عام ١٨٥٠ لم يك هناك مجتمع مسيحي إفريقي في إفريقيا جنوب الصحراء باستثناء الكنيسة القبطية في إثيوبيا إلا أن حصيلة الجهد الإرسالي والتنصيري تكاد تفوق المائتي مليون من البشر أي قرابة خمس سكان إفريقيا نتيجة لجهود الكنيسة التعليمية والصحية والإغاثية وأن كثيرا من كسب الكنيسة كان في مناطق إسلامية ومجتمعات إسلامية مثل ماحدث في موزمبيق وملاوي حيث انحسر عدد المسلمين إلي ٣٠٪ بينما كان الإسلام هو الأصل في تلك البلاد .

مقومات المشروع الإسلامي وآلياته للمستقبل :

ساهم الإسلام مساهمة عظيمة في التوحيد والتجانس الاجتماعي بين قطاعات كبيرة من الجماعات الإفريقية ، ليس ذلك فحسب بل بينها وبين مجتمعات أخري خارج إفريقيا وجدت هي الأخري في الإسلام ، السلام والإلهام علاوة علي ماوجدته في أخوة الإسلام من وحدة وقوة (١٠) .

ويبدو أن جزءا من النجاح الذي سجله الدعاة المسلمون مرده إلي أنه لم يتملك المسلمون الإحساس العرقي وكان العرب أنفسهم يميلون للسواد وقالوا كان أولاد عبد المطلب العشرة دلماً والأدلم الشديد السواد وكان ابن عباس " أدلم صحماً "

كما أن الدعاة المسلمين كيفما كانوا وحيث ماذهبوا أظهروا رفقا وتعاطفا واحتراما للعادات والأعراف المحلية ، كما أن الأخوة الإنسانية والمساواة مركوزة جذورها في النص

القرآني والثقافة الإسلامية ، ولم يكن العرب من جانبهم علي استعداد للتزاوج فقط مؤدين بالتالي لخلق مجتمعات إفريقية الأفكار إسلامية التوجه وعربية القسمات ، بل نجدهم في كثير من الأحيان قد امتصوا تماما لغويا وعرقيا بواسطة السكان المحليين المعنيين ، حال آل مزروعي في كينيا وعرب زنجبار و أهل هرر في اثيوبيا ، وقد أدي تفاعل المشروع الإسلامي إلي تجانس عرقي ولغوي وانسجام فكري واجتماعي - إن كل الممالك والدول ذات المغزي التي نهضت في إفريقيا من مطلع القرن الحادي عشر الميلادي والي أن تمكنت اوربا بأساطيلها وقواها الاستعمارية المختلفة إلي خنق المشروع الإسلامي في إفريقيا كانت دولا وممالك إسلامية - مثل مملكة غانا (٨٠٠ - ١٢٤٠م) وأمبراطورية مالي التي تلاشت عام ١٥٥٠م ثم مملكة سنغهاي التي ملكت من حوالي عام ١٤٦٠م وحتي حوالي ١٦٠٠ ومملكة كانم - برنو في فتراتها الثلاثة حوالي ١١٠٠ - ١٤٥٠م و١٤٥٠ - ١٦٠٠م - ١٦٠٠ - ١٨٠٠ ومملكة سنار ١٥٠٠ - ١٨٢١م وماعاصر هذه من ممالك إسلامية أو ممالك متأثرة بالثقافة الإسلامية (١١) .

إن إفريقيا تتطلع إلي الإسلام وتتطلع إلي تجديد ذاتها ويبدو أن أهم آلية للتواصل العربي / الإسلامي تتمثل في التعليم وذلك لخلق قيادات إسلامية فاعلة وقادرة علي مخاطبة تحديات ومطلوبات الإنسان الإفريقي ومع التعليم نحتاج للدعوة بالدعاة المتفرغين والمؤتمرات والوفود والحلق وكذلك بحركة البحث والنشر في قضايا المجتمعات الإفريقية ومشكلاتها وبالتواصل الفكري والسياسي والاقتصادي والتجاري بين العالمين العربي والإفريقي والإسلامي وكل ذلك ممكن وميسور إن صح العزم .

الهوامش :

(١) حسن علي الشايقي ، الدور الإفريقي في مناصرة الدعوة الإسلامية في عهد النبي صلي الله عليه وسلم – بحث ماجستير في الدراسات الإفريقية مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة إفريقيا العالميةغير منشور .

(٢) أنظر ابن حجر العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابة وكذلك أبونعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء

(٣) تاريخ وآثار مصر الإسلامية ص ٨٠٢

(٤) موسوعة " تاريخ وآثار مصر الإسلامية " الصادرة عن الهيئة العامة للاستعلامات المصرية، ص١٢١٦

(٥) الشيخ محمد الأمين القرشي ،سيرة يزيد بن أبي حبيب (العالم السوداني مطبعة محمد علي صبح وأولاده بمصر ، ١٩٥٤م ص ١١

(٦) تاريخ وآثار مصر الإسلامية ص ١١٢٠

(٧) عرب فقيه / شهاب الدين أحمد عبدالقادر الجيزاني / تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب وكذلك حسن مكي ، السياسات الثقافية في الصومال الكبير ، المركز الإسلامي الإفريقي الخرطوم ١٩٩٠م ص ٢٥ – ٢٧

(٨) انظر حسن مكي ، دراسات إفريقية العدد السابع عشر ، يونيو ٩٧، بين الأفغاني ودان فودي والمهدي

(٩) عبدالرحمن العيدروس (١٧٧٨ – ١٩٢هـ) وهو من أصل يمني وتنقل مابين اليمن والقاهرة والحجاز ، والهند وفي الهند انضم للحركة التجديدية المنسوبة لأحمد السرهندي (توفي ١٦٢٤م) وشاه ولي الله (المتوفي ١٧٦٢) ثم أنشأ طريقة باسمه (الكيرمائية / العيدروسية) وقد تسلك فيها علي يديه المرتضي الزبيدي صاحب تاج العروس.
Nell Mchugh , Holymen of the Blue Nile The Making of Arab - Islamic Community in the Nilotic Sudan 1500-1850 . Northwesten Un. Press 1994 P. 137

(١٠) انظر بروفيسور مدثر عبدالرحيم ، الإسلام والتجانس الإجتماعي في إفريقيا ، في مجلة دراسات إفريقيا ، العدد الأول ابريل ١٩٨٥ وكذلك بروفيسور عثمان سيدأحمد الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية بغرب إفريقيا ذات المصدر

(١١) انظر عثمان سيدأحمد ، مصدر سابق